الايمان ناقل الجبال

تفسير آية انجيلية للاب لويس شيخو اليسوعي

كتب الينا احد تلامذتنا القدماء : وقع خلاف بيني وبين بعض الاصدقاء في شرح آية الانجيل : اقول لكم لو كان لكم ايمان مثل حبة الخردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا واهبط في البحر فانهُ يكون ذلك » (متى ١٧ : ١٩ و ٢١ : ٢١) فكان البعض يقولون : هذا من المجاز ونوع من المبالغة البيانية ويقول غيرهم : بل هذا حقيقة واقعية . فاتفقنا على ان نلقي سؤالنا الى مجلة المشرق مصر ٧ ايلول ١٩٢٤

جواب المشرق

ان استفتينا آباء الكنيسة ومفسري الانجيل وجدناهم كاد بالتنا السائلين يختلفون في شرح هذه الآية التي وردت ايضاً في انجيل القديس مرقس (١١ : ٢٣) ورواها القديس لوقا (١٧ : ٥) على صورة اخرى «لقلتم لهذه التينة انقلعي وانغرسي في البحر فتطيعكم» على اننا نكتفي الآن بصورة الجبل . وانما نقدم على بيان الرأيين ملحوظاً مهماً وهو انَّ السيد المسيح بتشبيهِ الايمان بحبة الخردل لم ينوِ بها قلة الايمان كما يتبادر الى الذهن بل حرارة الايمان لان الخردل مع صغر حبتهِ حادّ ذو حرارة وحرافة يُتخذ كرهم لجذب الحرارة

﴿ المعنى المجازي ﴾ اما قولهُ انَّ ايماناً كحبة الخردل يستطيع ان ينقل جبلاً ويهبط بهِ في البحر فانَّ منهم من يحملهُ على المعنى المجازي فيقولون انَّ السيد المسيح اراد بالجبل كل امر عويص اعني انَّ الايمان الحيّ يقوى على ما لا يستطيع بهِ ذوو الايمان الضعيف . ولذلك نراهُ عزَّ اسمهُ كان اذا رأى في من يطلب منهُ نعمة كشفاء علة او طرد شيطان لا يتأخر عن منحها اذا وجد ايماناً حياً في الطالب كما فعل مع المرأة الكنعانية التي شفى ابنتها ومع قائد المئة الذي ابرأ غلامهُ . ويؤيدون قولهم بمجازات اخرى وردت عن لسان السيد المسيح لا يجوز تفسيرها بالمعنى الحرفي كقولهِ تعالى (متى ١٩ : ٢٤) انهُ لأيسر دخول الجمل في خرم الابرة من دخول الغني في ملكوت السماوات . وكقول يوحنا في آخر انجيلهِ انهُ لو كُتبت الاشياء التي صنعها يسوع

واحدةً فواحدة لما ظننتُ انَّ العالم كلَّهُ يسع الصحف المكتوبة . فعلى هذا المثال اراد بقوله ان ذا الايمان يستطيع بقوّة ايمانهِ ان يأتي بامور صعبة تعاص على من ليس فيهِ روح الايمان . وهذا كقول القديس بولس في رسالته الى اهل فيلبي (٤ : ١٣) : « اني استطيع كل شيء في الذي يقوّيني » ويعود الى قول الملاك جبرائيل الى العذراء مريم (لوقا ١ : ٣٧) . « ليس على الله بامر مستحيل »

وقد خصَّص غيرهم هذا المعنى المجازي فلم يطلقوهُ على اي امر شاقّ عموماً بل يقولون كما صدَّق على رأيهم القديس اوغسطينوس انَّ المقصود بالجبل هنا انَّما هو الشيطان عدوّ البشر شُبِّه بالجبل لكبريائهِ وعجرفتهِ وتجبُّره فيكون المعنى انَّ صاحب الايمان لو تصدّى للشيطان نفسهِ لخزاهُ وقهرهُ . ويردفون قولهم بشرح ما ورد في نبوَّة زخريَّا (٤ : ٧) حيث يقول الملاك للنبي ان زروبّابل سيقيم الهيكل الذي خربهُ نبوكدنصَّر ولو قام في وجههِ جبلٌ لتحوَّل الى سَهْل . قال القديس ايرونيموس والقديس كيرلُّس والرَّبانيُّون انَّ الجبل هنا هو ابليس الرجيم الذي سيحاول مَنْع زروبّابل عن تشييد هيكل اورشليم لكنَّهُ سينتصر عليهِ ويدحرهُ . دعاهُ جبلًا لعظَمتهِ . ولنا في اللغة العربيَّة ما يشبه هذا المعنى فانَّ العرب يدعون سيّد القوم جَبَلًا كما ترى في المعاجم

وقد علَّقوا على هذا المعنى المجازي معنًى آخر روحيًّا . قال المفسّر الكبير القديس ايرونيموس : انَّ الجبل في عُرف الآباء الروحيين التجربةُ الثقيلة وخصوصاً تجربة الكبرياء والنخفخة التي يغري بها الشيطان قلب الانسان فيثق بنفسهِ دون خالقهِ . وقد ورد في سيرة القديس فرنسيس الاسيزي ما يثبت صحة هذا المعنى . اخبر وَدِيْنغ مؤلف ترجمتهِ انَّ ابليس حاربهُ يوماً بتجربة الكبرياء فضايقَهُ وعنَّتهُ حتى كاد ييأس من غلبتهِ فصرخ الى الله باكياً ليردَّ عنهُ ذلك الوسواس فسمع صوتاً يقول لهُ : يا فرنسيس لو كان لك ايمان كحبَّة الخردل وقلت للجبل انتقِلْ لأنتقل . فلم يدرك القديس معنى الصوت فقال : وما هذا الجبل يا ربّ ؟ . اجاب : هو التجربة . فصرخ فرنسيس بايمان عظيم وثقةٍ تامة : فليكن لي يا رب حسب قولك . وللحال نجا من تجربتهِ

فترى ممَّا سبق انَّ لمعنى هذه الآية المجازي وجهاً صحيحاً وسنداً متيناً

﴿المعنى الحقيقي﴾ ولكن أليس للقائلين بالمعنى الحقيقي دليلٌ ثابت اذ يقولون انَّ الجبل في كلام الربّ هو المرتفع فوق الارض المعروف؟ وإن قيل لهم كيف يقوى

ذو الايمان ان ينقل جبلًا ويهبط به في البحر ؟ أليس هذا من الامور المخالفة للعقل ؟

فيجيب الاولون : كلّا بل هذا من العجائب التي يمكن حدوثها اذا كان للامر موجبٌ معقول . أفهذا أصعب من إحياء الاموات وفتح عيون اكمه مولود اعمى وغير ذلك من المعجزات التي صنعها السيد المسيح وكثيرون من رسله وقديسيه . فهب ان قوماً وُجدوا في احوالٍ حرجة لا طاقة لهم من النجاة منها الا بنقل جبل من مكان الى آخر والتجأوا الى الله ليُفرج عنهم كربتهم بازاحة الجبل فاذا يمنعهُ تعالى ان يجيب الى دعائهم وينقل ذاك الجبل عنهم ؟ اليس هو خالق الجبال ؟ او ليست الجبال كسائر الارض تحت حكمه وقدرته ؟

فيُردف المناقضون فيقولون : لو صَدَقَ قولكم لرأينا صحّتهُ بما يثبتهُ التاريخ . ومع كثرة اصحاب الايمان لم نسمع بجبل انتقل بامرهم

يجيب القائلون بالمعنى الحقيقي : انَّ سبب ذلك ليس قلّة ايمان المؤمنين ولكن لعدم احتياج البشر عادةً الى معجزةٍ كهذه اذ هم في غنًى عنها

ثمَّ يُفحمون التاركين بذكرهم ما رواهُ اوسابيوس المؤرخ الكبير في تاريخه (ك ٧ ف ٢٥) عن القديس غريغوريوس العجائبيّ اسقف قيسارية استنادًا الى شهادة كاتب سيرته القديس غريغوريوس نيصص . فيُروى هناك انَّ القديس وجد في المدينة مكاناً موافقاً لتشييد كنيسةٍ لشعبه الذي ردَّهُ عن الوثنيّة الّا ان جبلًا هناك كان يعيق بناءها بموجب رسمٍ اشار اليه المهندسون . فجاء القديس ليلًا وذكر لربّه ما قالهُ في انجيله انَّ الايمان الحيّ يستطيع نقل الجبال . ثمَّ صلّى بكل حرارة واذا بالجبل أفسح لهم بانتقاله من مكانه وشُيّدت الكنيسة كما ارادوها

قالوا ما صنعهُ غريغوريوس القديس يستطيع رجل الله آخر عند الحاجة ان يُنالهُ . وقد روى الرحّالة الشهير مرقس بولس (Marco Paulo) في رحلته خبرًا يشبههُ قال انَّ بعض ملوك التتر كان تنصَّر قومٌ من اهل مملكته فاراد ان يردّهم عن ايمانهم ويثبت لهم كذب ديانة المسيحيين فطلب اليهم ان ينقلوا جبلًا هناك فان عجزوا عن ذلك عرفوا بطلان ديانتهم . فالتجأوا الى الله فلم يُخيّب أملهم فاقنعوا الملك بصحّة ايمانهم

واعجب من هذا ما يرويهِ المؤرّخون الاقباط في تاريخهم منهم ابن الراهب من كتبة القرن الثالث عشر الذي نشرنا تاريخهُ سنة ١٩٠٣ (ص ١٣٣) واقدم منهُ

ساويروس ابن المقفع اسقف الاشمونين في تاريخ بطاركة الاسكندرية (ص٥٧٦ من نسخة مكتبتنا الشرقية) كان في القرن العاشر للميلاد وقد روى الواقعة الشماس منسى القمص في تاريخه الحديث للكنيسة القبطية (صفحة ١٩٣) ودونك الخبر عن اسقف الاشمونين زويه على علاته دون ان نقضي بصحته او ببطلانه. فمد ان اخبر الكاتب بانتخاب الاقباط لرجل صالح اسمه افراهام بن زُرعة جملوه بطريركاً عليهم وروى جملة من اعماله الصالحة ذكر ما حدث له مع وزير الخليفة الفاطمي المعز لدين الله وكان الوزير يهودياً أسلم طمعاً بالمراتب فاثبت البطريرك ظلمه وظلم اليهود في جباية الاموال من النصارى فغضب الوزير وطلب للبطريرك عثرة لينتقم منه. قال ساويروس (٥٧٨—٥٨٢):

« وفي بعض الأيام وجد الوزير سبيلاً الى ان قال للمعز: مكتوب في الجيل النصارى « انَّ من كان فيه مثل حبَّة خردل من الايمان فانهُ يقول للجبل انتقل واسقط في البحر فيفعل» فَنَيرَ امير المؤمنين رأيهُ في مطالبتهم بتصحيح هذا القول ليعلم انهم على مُحال وكذب وإنَّ هم لم يفعلوا وَجبَ ان يُفعَل بهم ما يستحقونهُ على كذبهم. فوافقهُ الخليفة المعزّ على هذا الكلام وانفذ فطلب الانبا افراهام البطرك وقال لهُ: ماذا تقول في هذا الكلام أهو في الجيلكم ام لا؟ قال البطرك: نعم هو فيه. قال: هوذا انتم نصارى وربوات في هذه البلاد فأريد ان تُحضر لي واحدًا منهم تظهرُ هذه الآية على يده وانتَ يا مقدَّمهم يجب ان يكون فيك هذا الفعال والاَّ أفنيتكم بالسيف

«حينئذٍ بُهت البطرك ونالهُ خوفٌ عظيم ولم يدرِ ما يجيبهُ به. فألهمهُ الله تعالى أنْ قال لهُ: « أمهلني ثلثة أيام حتى ابحث واطلب من الربّ جلَّ اسمهُ ان يُطيّب قلب امير المؤمنين على عبيده » فأمهلهُ وعاد الى منزله بمصر واحضر الكهنة والاراخنة بمصر وجميع الشعب الاورثذكسي وعرَّفهم الامر وهو يبكي. وكان بمصر جماعة من رهبان وادي هبيب فجعل على جميعهم قانوناً أن لا يمضي احدهم الى منزله في الثلثة الأيام وان يجتمعوا لمداومة الصلاة في البيعة الليل والنهار ففعلوا ذلك الثلثة الأيام مع لياليها. وأمَّا البطرك فلم يفطر فيها بالجملة. وبعضهم كان يفطر من الليل الى الليل على خبز وملح وماء يسير « ولم يزل الانبا افراهام البطرك قائماً يبكي بين يدي الله

سبحانهُ في تلك الأيام ولياليها حتى لم يبتَ فيهِ حركة . وكان هذا الاجتماع المبارك في كنيسة السيدة بقصر الشمع المعروفة بالمعلقة . فلمَّا كان صباح اليوم الثالث سقط البطرك القديس على الارض من حزن قلبهِ وصيامهِ وتعبهِ وغفيَ غفيةً يسيرة فرأى السيدة الطاهرة مريم وهي تقول لهُ بوجه فرح : ما الذي اصابك ؟ . فقال لها : أما تنظرين حزني يا سيدتي فانَّ ملك هذه الارض قال لي : «إن لم تُظهر لي في هذا اليوم آيةً من الجبل والَّا قتلتُ جميع اهل النصرانيَّة بديار مصر وأبدتُهم من مملكتي بالسيف . فقالت لهُ السيدة : لا تخَفْ فاني لا اغفَلُ عن الدموع التي سكبتَها في بيعتي هذه . قُم الآن وانزل من ها هنا واخرج من باب درب الحديد الذي يؤدّي الى السوق الكبير . ففيما انت خارج تجد انساناً على كتفهِ جرَّة مملوَّة ماء ومن علامتهِ انهُ بعَيْن واحدة فامسكهُ فهو الذي تظهر هذه الآية على يديهِ »

«فاستيقظ البطرك للوقت وهو مرعوب وكان غلَس النهار فنهض بسرعةٍ ولم يدع احداً يعلم بهِ حتى وصل الى الباب فوجدهُ مغلقاً فشكَّ في قلبهِ وقال : اظنُّ انَّ الشيطان قد لعب بي . ثمَّ دعا البوَّاب فتح لهُ . وكان اوَّل من دخل من الباب الرجل الذي قيل لهُ عنهُ فأمسكهُ البطرك وعمل لهُ مطانيةً وقال لهُ من جهة الربّ : ارحم هذا الشعب . ثمَّ اخبرهُ عن السبب في اجتماعهِ بهِ . فقال لهُ الرجل : اغفر لي يا ابي فاني انا خاطئٌ ولم ابلغ الى هذا الحدّ . فعند ذلك اخبرهُ البطرك بما قالت لهُ السيدة الطاهرة عند ظهورها لهُ ثمَّ قال لهُ : ما صناعتُك ؟ فاراد ان يخفيهُ امرَهُ . فجعل البطرك عليهِ الصليب وربطهُ بالحرم ان اخفى عليهِ شيئاً من امرهِ فقال لهُ :

«انا اخبرك بحالي فاني رجلٌ دبَّاغ وهذه العين التي تراها فإني قلعتُها لاجل وصيَّة الربّ عند ما نظرتْ نظرًا فيهِ شهوة ورأيتُ اني ماضٍ الى الجحيم بسببها ففكَّرتُ وقلتُ : الاصلحُ لي أنْ امضي الى الحياة بفرد عين كما قال السيد المسيح فذلك خيرٌ من ان امضي الى الجحيم بعينين . وانا في هذا الموضع اجيرٌ لرجلٍ دبَّاغ ما افضَلُ ممَّا اعملُ بهِ في كلّ يوم الَّا خبزًا آكلهُ واعطي الباقي للمستورين المنقطعين من الاخوة نساء ورجالاً وهذا الماء استقيهِ لهم كلّ يوم قبل ان اذهب الى شغلي فامضي بهِ الى قومٍ فقراء منهم من لا قدرة لهم على شراءهُ من السقَّاء . فنهاري كلُّهُ اعمل في المدبغة وفي ليلي قائمٌ اصلّي . فهذه قضيَّة حالي فاسألك يا ابي ان لا تُظهرني لاحدٍ فليس لي

قدرة ان احتمل بجد الناس بل الذي اقولهُ لك فافعل بهِ :

« أُخرج انت وكهنوتك وشعبك كلهُ الى الجبل الذي يقول لك الملك عنهُ ومعكم الاناجيل والصلبان والمجامر والشمع الكبير وليقف الملك وعسكرهُ في جانب وانا خلفك قائم في وسط الشعب بحيث لا يعرفني احد . وانت وكهنوتك صيحوا قائلين : « يا ربّ ارحم » ساعةً طويلة ثمّ مُرهم بالسكوت والهدو . وتسجد ويسجدون كلهم معك وانا اسجد معكم من غير ان يعرفني احد وأفعَلْ هذا ثلث مرّات . وكلّ مرّة تسجد وتقف ثمّ تصأب على الجبل فسترى مجد الله

« فلمّا قال هذا القول طاب قلب البطرك بما سمعهُ منهُ ثمّ نهض وجميع الشعب معهُ وصعدوا الى الملك وقالوا لهُ : اخرج الى الجبل . فأمر جميع عساكره وخواصهِ ووجوه دولتهِ بالخروج وضُربت البوقات وخرج الملك المعزّ ووزيرهُ معهُ ففعل الاب البطرك كما قال لهُ ذلك القديس ووقف الملك المعزّ واصحابهُ في جانب وجميع النصارى والبطرك في جانب آخر ووقف الرجل خلف البطرك ولم يكن في الجمع من يعرفهُ الّا البطرك وحدهُ وصرخوا : « يا ربّ ارحم » دفعات كثيرة ثمّ امرهم بالسكوت وسجد على الارض وسجدوا جميعهم معهُ ثلاث دفعات وكلّ دفعة يرفع وجههُ ويصأب فيرتفع الجبل عن الارض فاذا سجدوا نزل الجبل الى حدّهِ . فخاف الملك المعزّ خوفاً عظيماً وصاح الملك والمسلمون « الله اكبر لا اله غيرك » ثم قال الملك المعزّ للبطرك بعد ثالث دفعة : حسبُك يا بطرك قد عرفتُ صحّة دينكم

« فلما هدأ الناس التفت البطرك يطلب الرجل القديس فلم يجدهُ . ثمّ قال الملك للبطرك الانبا ابراهام : تمنّ شيئاً أفعلهُ لك . فقال لهُ : لا اتمنّى الّا ان يثبّت الله دولتك ويعطيك النصر على اعدائك . فقال لهُ : لا بُدّ ان تتمنّى شيئاً . واعاد عليهِ القول ثلاث دفعات . قال لهُ البطرك : ان كان ولا بُدّ فانا اسأل مولانا أن يأمر إنْ امكن ان تُبنى بيعة ابي مرقورة بمصر لانهم بعد ان كانوا هدموها لم يمكنونا من عمارتها وجُعلت شونةً للقصب . وكذلك بيعة المعلّقة بمصر في قصر الشمع فانها انهدم من حيطانها شيء كثير واختلّ بعضها فأسأل الإذن في عمارتها ايضاً

« فامر المعزّ للوقت بتمكينهِ من ذلك واطلق لهُ من بيت المال ما يصرفهُ في العمارة فاخذ السجلّ واعاد المال وقال للملك المعزّ : الربّ يثبّت ملكك وبيتُ المال

احقُّ بهذا المـال . فلمَّا قرأ السجلّ عند بيعة ابي مرقورة اجتمع الباعة الـذين هناك واوباش الناس وقالوا: لو قتَلْنا اجمعين سيفٌ واحد ما مكّنا احدًا يجعـل حجرًا على حجر في هذه البيعة . فعاد البطرك الى الملك المعزّ فانفذ الملك من يمكّنـهُ بالعمل فبنَوا فيهِ لوقتهِ ولم يجسر احد ان ينطق بكلمة الّا شيخٌ واحد كان يصلّي باولئك الباعة في ذلك المسجد الذي هناك وهو الذي كان يجمع الجموع ويُثيرهم فرمى نفسهُ في الاساس وقال: أُريد اليوم ان اموت على اسم الله ولا ادع احدًا يبني هذه البيعة . فعلم الملك المعزّ بذلك فامر ان تُرمَى عليهِ الحجارة ويُبنَى فوقـهُ . فلمَّا رُمِيَ عليهِ الحِير والحجارة اراد ان يقوم فلم يمكّنهُ الاعوان لان المعزّ امر بدفنـهِ في الاساس الـذي طرح نفسهُ فيهِ . فلمَّا رأى البطرك ذلك نزل عن دابَّتهِ وتطارح بين يدي المعزّ وسألهُ فيهِ الى ان امر بإصعادهِ من الاساس فما صدَّق ان يُفات منهُ سالمًا بعد ان اشرف على الموت . وعاد الملك المعزّ الى قصرهِ فلم يجسر احد بعد هذا ان ينطق بحرف واحد الى ان كملت عمارة البيعة وكذلك بيعة المعلقة بقصر الشمع وكلّ البيع التي تحتاج الى عمارة فلم يعترضهُ احد في شيء من ذلك» (١)

هذا ما نقلناهُ بحرفهِ الواحد من تاريخ ساويروس بن المقفّع الـذي كان معاصرًا للحوادث التي اخبر بها رويناهُ على علّاتهِ دون ان نجزم بصحّتهِ . وكنَّا نودّ لو روى هذا الخبر غير الاقباط الى ان وجدناهُ في تاريخ الشيخ ابي صالح الارمني الذي طُبع في اوكسفرد عن نسخة باريس . وكان هذا المؤلف في اواسط القرن الثـاني عشر ففي الصفحة ٤٤—٤٥ ذكر بيعة الشهيـد مرقوريوس وذكر هناك كيف جدَّدها الانبـا افراهام السرياني وروى قصَّة الجبل المتحرّك بأمانة الدبّاغ . وقـد خالف رواية ابن المقفّع في بعض الامور منهـا انهُ لم ينسب الامر الى الملك المعزّ لدين الله بل لابنـهِ العزيز بالله الذي خلف اباهُ سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) وعيَّن الجبل الـذي تحرَّك بصلاة المسيحيين فقال هو جبل المقطَّم والله اعلم

وعلى كل حال يستنتج من هذه القصَّة انهُ ليس بمستحيل على الله لنجاة عبيدهِ من البلايا او لغاية اخرى شريفة ان يسمح بالمعجزات حتى بنقل الجبـال ان اقتضى الامر